

التوظيف الديني والأسطوري للون في شعر الحروب والفتن في الأندلس

أ. د. نبيل خالد أبو علي *

أ. يحيى أحمد غبن **

الملخص

للتوظيف الديني والأسطوري أثر بارز عند شعراء الأندلس يعكس ثقافتهم، وتجاربهم الشعرية، ويكشف اتجاهاتهم الفنية، ما يؤدي إلى خلق أجواء نفسية في وجدان المتلقي. يمثل البحث محاولة جادة للكشف عن طرق التوظيف الشعري الديني والأسطوري للون، باعتباره أحد أبرز العلامات السيميائية في دراسة النص الأدبي، وقد اتخذ الباحثان من شعر الحروب والفتن في الأندلس مادة شعرية لدراسته.

The effect of potential context in directing the reference of the pronoun with some of al-saheehen explainers

Abstract

Religious and mythical employment has a prominent influence at poets of Andalusia, and it reflects their culture and poetic experiences, and reveals their artistic tendencies.

This leads to create a psychological atmosphere in the recipient's conscience.

* كلية الآداب-الجامعة الإسلامية-غزة- فلسطين.

** كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الأقصى-غزة- فلسطين.

توطئة:

يولد الشعراء ليمروا بتجارب حياتية خاصة بهم، تترك أثراً بالغاً في أشعارهم، وكلما كانت الظروف المحيطة بالشعراء واحدة، كان الاتجاه الشعري قريباً، باستثناء بعض التجارب الخاصة. لذا سيتناول هذا البحث دراسة البيئة التي تركت أثرها على الشعراء، وجعلتهم يوظفون الألوان في التعبير عما يدور في خلدتهم، من معاني وإشارات. ولما كان الإسلام هو المعين الكبير الذي نشأ عليه هؤلاء الشعراء، وبالتالي تصدر بناء على تعاليمه أفكارهم العامة والخاصة، إذ هو الناظم لحياتهم، كان المبحث الأول ليغطي هذا البعد، ويقيس مدى حضور الفكرة الدينية في أذهان شعراء الأندلس على اختلاف عصورهم، ويتضمن المبحث الأول الدلالة اللونية المشتركة مع القرآن الكريم، والتناص الديني مع السياق اللوني في الأشعار.

وقد كان للأساطير دور مهم في أذهان الشعوب، حيث إنه أتيح للأندلسيين ما لم يتح لغيرهم من الاتصال بالآخر، فهم الذين ورثوا الحضارة اليونانية بحكم وجودهم في قلب أوروبا، وتعلقوا بالحضارات المشرقية حيث أولعوا بها، وقادهم الحنين إليها؛ لذا تناول المبحث الثاني الجانب الأسطوري الذي ترك آثاره على نفسيات الشعراء، ويعد هذا المبحث محاولة لتتبع الرموز اللونية الأسطورية المستخدمة لدى الشعراء الأندلسيين عبر الحديث عن صور المقاتلين ووسائل القتال وأساليبها وصور الحرب وأوصافها.

ويرى الباحثان أنه يمكن التوصل إلى نتائج جيدة من خلال استخدام المنهج السيميائي في هذا البحث حيث يعد اللون علامة مهمة توصل المتلقي لفهم النص والإحاطة بجوانبه.

المبحث الأول - التوظيف الديني:

تأثر شعر الحروب والفتن في الأندلس بالدين السائد، حيث وجد كم كبير من النصوص المتناصّة مع القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، والتعريف بأبرز عقائد النصارى المحاربين لهم كعقيدة التثليث، وصلب المسيح وغيرها، وقد لاحظ الباحثان دلالة الألوان على تلك الأبعاد ذات التوجه الديني من خلال علاقته: أولاهما الدلالة اللونية المشتركة، والثانية علاقة التناص الديني مع السياق اللوني، وستتم دراسة هذه العلاقات في هذا المبحث.

التوظيف الديني والأسطوري للون...

الدلالة اللونية المشتركة:

تعد الدلالة اللونية المشتركة سمة بارزة في ألوان شعر الحروب والفتن حيث لاحظ الباحثان استخدام الشعراء الدلالات اللونية القرآنية في أشعارهم، فمن المعلوم وصف الله تعالى الفجر بالضياء، وجعله علامة بداية النهار، وعنده يمسك المسلمون صيامهم، وفيه قال الله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187].

وقد استعمل حازم القرطاجني دلالة اللون الأبيض على النور مستخدماً لفظة (خيطة) فقال:

فَانبَتَ مَا أبيضٌ من خيط الصَّبَاحِ بكم
وانبَتَ مسودٌ خيط اللَّيْلِ وانقطعا

(القرطاجني، 1989، ص: 76)

ففي البيت إشارة إلى انبعاث الصباح ونوره وإضاءته بفضل طلوع هذا القائد المنتصر، وفي المقابل انقطعت ظلمة الليل التي خيمت على المدينة المحررة طيلة مكث الأعداء فيها. وصف ابن حيان الأندلسي وجوه العرب بالبيضاء، في إطار هجائه السياسي العنصري ضد الزنوج، حيث شبه وجوه الزنوج بوجوه أهل النار سوداء، ووجوه المؤمنين بوجوه أهل الجنة التي تتسم بالبياض، ولذا هو يقول:

ويبين البيض والسودان فرقاً
لذي عقلٍ به إتضح المراد
وجوه المؤمنين لها إبيضاض
ووجه الكافرين به إسوداد

(ابن حيان الأندلسي، 1977، ص: 65).

وهذه الأبيات السابقة تستعمل نفس الدلالة اللونية القرآنية حيث يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 106، 107]. فكان البياض علامة أهل الإيمان، والسواد علامة مميزة للمعذبين في النيران في دلالة استعارية تأثرية.

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

وقد استعمل القرآن الكريم دلالة اللون الأبيض المستخدم في العين على المرض والعمى، وذكر ذلك في قصة سيدنا يوسف- عليه السلام- في بيان أثر كثرة البكاء على عين نبي الله يعقوب- عليه السلام- حيث يقول تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكَرُ يَوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 84 - 86].

ففي هذه الآيات يتبين أن هلاك عينه كان بسبب الإفراط في الحزن، والهم والغم الناتج عن فقدانه لولده، يظهر ابن الزقاق البننسي في دلالة موازية لدلالة اللون المستخدم في النص القرآني حيث يقول متحسراً على سكنه الذي تركه، ويرثي لمدينته التي أضحت غريبة عليه:

لي سَكَنٌ شَطَطٌ به غُرْبَةٌ جادت لها عيناى بالمُزِنِ
ما حَسَنُ الصَّبْحِ ولا راقني بياضُهُ مذ بان في الظَّنِ
كأنما الصُّبْحُ لنا بعده عينٌ قد ابْيَضَّتْ من الحزنِ

(ابن الزقاق، 1964، ص: 223).

فالشاعر يبكي بكاء شديداً، ينهال دمعته كالأمطار المنحدرة من السماء، ويرى التحولات الكونية حتى حجب عنه رؤية الصباح، ويستدعي بعدها دليل حزنه الشديد بقوله: (عين قد ابيضت) أي ذهبت رؤيتها ومرضت من كثرة البكاء والحزن.

ومن الدلالات المستخدمة في الإشارة إلى حسن المرأة، وصفها بالببيضاء المقيمة في الخدور يقول الشاعر:

وجنَّيْتُمُ ثَمَرَ الوَقَائِعِ يانِعاً بالنصر من وَرَقِ الحديدِ الأخضرِ
وضريئُهم هامَ الكُماةِ ورُعْنُمُ ببيضَ الخُدُورِ بكلِّ ليثٍ مُخدرِ

(ابن هانئ، 1980، ص: 161).

يصف الشاعر جو المعركة، فقد قطفت ثمرات النصر بتلك الآلات الحربية الكثيرة، من حراب ورماح وسيوف، ويصف أحد مشاهد الحرب، فالأسود من مقاتلي الأعداء قد حصدت رؤوسهم، النساء المدللات المرفهات قد أصابهن الروع.

التوظيف الديني والأسطوري للون...

وفيه تعالق دلالي مع القرآن الكريم حيث وصف الله تعالى تتعم الحور العين في الجنة بهذا الوصف السابق حيث قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: 48، 49]، فالمقصورات هن المحجوبات المحبوسات فلا يراهن إلا أزواجهن من المؤمنين، وشبههن بالبيض المكنون كناية عن العفة والجمال.

ومنه قول ابن حيوس:

سَالٍ عَنِ الْبَيْضِ الْحِسَانِ فَمَا لَهُ إِلَّا هَوَى الْبَيْضِ الْقَوَاضِبِ دَابُّ
لَيْثٌ أَظْفِرُهُ الْأَسِنَّةُ وَالْقَنَا عَرِيْسُهُ وَلَهُ الظُّبَى أَنْيَابُ

(ابن حيوس، 1984، ص: 60)

فبطله المقاتل لا ينظر إلى زينة الدنيا؛ لانشغاله بضرب رقاب الأعداء في ساحات المعركة، ودل قوله: (البيض الحسان) على النساء الحسنيات.

استعمل القرآن الكريم اللون الأخضر في الزينة، واللون الأخضر هو لباس أهل الجنة، وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسَنَتْ مَرْتَفَعًا﴾ [الكهف: 31]، وهذا ابن دراج القسطلي يستخدم الدلالة اللونية الخضراء على اللباس في إشارة إلى مدوحه الذي بظهوره تكتسي الدنيا حلل أهل الجنة المدبجة، فيقول:

وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ مِنْ كُسَاهُ فِي حُمْرِ إِسْتَبْرَقٍ وَخُضْرٍ
وَأَشْرَقَ الْمَسْكُ وَالْعَوَالِي فِي أَوْجِهِ مِنْ نَدَاهِ عُرِّ

(ابن دراج، 1961، ص 32-33).

استعملت الدلالة اللونية الخضراء إشارة إلى اللباس الجميل المستخدم في الصيف في امتزاج دلالي مع القرآن الكريم، يتنعم بها كرام الناس عند الله - تعالى - حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان: 51 - 53]، وكذلك قوله تعالى في وصف أحوال أهل الجنة: {عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: 21].

ومن الدلالات اللونية ذات البعد الديني قول ابن الأبار:

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

وَلَدِيهِ إِذَا اغْبَرَّتْ سِنَّةٌ
مِنْ عُرْفِ عَوَارِفِهِ أَبْدَا
مُخْضَرٌ الْعَيْشِ وَأَرْغَدُهُ
أَنْ يَرِفْدَ مَنْ يَسْتَرْفِدُهُ
(ابن الأبار، الديوان، ص: 156).

حيث دل الاخضرار على طيب الحياة والعيش، يقول الله تعالى: ﴿الْم تَرَّ أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63]، فقد أشار اللون الأخضر إلى الحياة والنماء حيث تخضر الدنيا نتيجة الأمطار، في دلالة مشتركة بين النص القرآني والشعري تتعلق بالنماء والنضارة.

وقد ارتبط اللون الأصفر بالدلالة على السرور، والشعور بالبهجة فقد وصف الله تعالى بقرة آل إسرائيل بالصفراء التي تسر الناظرين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ [البقرة: 69]، وفي نفس الدلالة المبهجة يقول الرصافي البلنسي:

فَلَا حُرِمَتْ سَفْيَاهُ أَدْمَعٌ مُزْنَةٌ
تَرَى مَبْسَمَ النُّوَارِ أَصْفَرَ مُغْبِرًا
(الرصافي البلنسي، 1989، ص: 73).

وارتبطت دلالة اللون الأصفر بالحطام والهشيم الذي يصيب الزرع، وقد استخدم لسان الدين بن الخطيب هذه الدلالة خلال هجائه لليهود وسخريته من صلاتهم، فيقول:

وَعُصْبَةٌ شَرٌّ مِنْ يَهُودٍ لَقِيَتْهَا
إِذَا أَمِنُوا وَاسْتَوْتَقُوا الْبَابَ أَغْلَنُوا
بُجَانِبُهَا دَاعِي الْهُدَى وَيُحَاشِيهَا
خَبَائِثٌ مَا كَانَ اللِّسَانُ لِيُقَشِّبِهَا
وَقَدْ أَوْمَأَتْ لِلأَرْضِ صُفْرَ شَوَاشِيهَا
وَقَدْ أَسْقَطَتْ عَنْهَا بِيَاضَ حَوَاشِيهَا
كَأَنَّ رُؤُوسَ القَوْمِ عِنْدَ صِلَاتِهِمْ
أَقَاحَ أَمَالَتِهَا الرِّيَاحُ عَلَى الثَّرَى

(لسان الدين بن الخطيب، 1989، 2/ 739).

فرووسهم منكسرة كسنبله القمح الصفراء المنتنية المنكسرة، وقد أحاط القرآن الكريم اللون الأصفر بهذه الدلالة، فالحياة المنتهية إلى الفناء كالأشجار الخضراء التي تصفر في علامة على قرب هلاكها وفنائها، يقول الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزِينَةٌ وَتَقَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْأَجْرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

التوظيف الديني والأسطوري للون...

وقد جاءت دلالة اللون الأزرق في القرآن الكريم مشيرة إلى المرض والكد حيث يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: 102]، فالأزرق دليل على العمى، وهو صفة مرض تصيب العين، وقد ذكر ذلك الزمخشري من كون المراد بالآية هو العمى لأن حدق من يذهب نوره تزرق.

ومن المعلوم أن أي عضو في الجسد يعد مريضاً إن تحول لونه إلى الأزرق، وقد كان العرب القدماء يتشائمون من اللون الأزرق في العين، لتعلقه بلون عيون العجم من أعدائهم الروم، يقول ابن الزقاق البلنسي:

فالبس فوادي وُقِيَتْ لوعتهُ فإنه أزرقٌ من الكمد
(الزمخشري، 1996، 87/3).

وفي التفسير أن قوله تعالى (زرقاً) يشير إلى ما أصاب الوجوه من الكدر والهجم، وهكذا حال شاعرنا، فقلبه متغير لونه إلى الأزرق، دلالة على الكمد والقلق والحسرة. ومنه استعمال اللون الأزرق كدليل للهلاك، يقول الشاعر:

وأداخ أهل المشركين بوقعة تركتهم مثل الأشاء المحرق
جاءت عليهم حربه بصواعق تركتهم مثل الرماد الأزرق
(ابن عذاري، 2: 169).

التناص الديني مع السياق اللوني:

كان من سمات النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يخطب في المجاهدين، ويحثهم على القتال في سبيل الله تعالى، وقد سار على هذا المنوال الخلفاء الراشدون من بعده، وقادة الفتح الإسلامي بعد ذلك، وما كان هذا إلا من باب التحريض على الجهاد في سبيل الله تعالى.

لقد تسلسل إلى شعر الحروب والفتن الأندلسية الكثير من المبادئ الإسلامية التي جاءت في قصائد الشعراء المتحدثين عن الحروب، والفتن، والبطولات وغيرها، ومن الملاحظ أن الشعراء خلطوا هذه الأفكار الدينية بالألوان، لتؤدي وظائف مختلفة، ودلالات متباينة، وفيما يأتي نصوص مختارة توضح التناص الديني مع اللون، في محاولة جادة لفهم بعض الظواهر والوظائف الناتجة من سياق التعبيرات.

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

لقد كان الهدف الأساسي من الجهاد هو إدخال الناس في الإسلام، وقد جاء هذا على لسان ريعي بن عامر حين قال لقائد الفرس: "جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان..."، وأخبرنا القرآن الكريم عن الغاية من هذا الجهاد، والمتمثلة في نصرة الدين وإحقاق الحق، حيث قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: 8]. وقد زخرت النصوص الشعرية بهذا المضمون منها قول ابن الأبار الأندلسي:

تساوقا في سبيل الله واستبقا فاستوسق النصر أوفاه وأبطؤه
هذا على أغير البيداء يسجره وذلك في أخضر الدأماء يملؤه
كلُّ عليه بما جشمتته أبداً كلاءة الدين واليمن يكلؤه

(ابن الأبار: 1999، ص: 42).

فقد شرع الجهاد في سبيل الله تعالى لنصرة هذا الدين، فهو يعلو ولا يعلى عليه، ويسمو ولا يسمى عليه، وفي هذا المعنى الذي ذكره الشاعر تناص مع القرآن الكريم كما سبق ذكره، وقد ربط الشاعر بين هذا الهدف وبين الإعداد الحق للجهاد في سبيل الله تعالى، والذي يتمثل في تجييش الجيوش الكبيرة الحرارة التي لا تخشى الصعاب، ولا تهاب الموت، في كل المواطن الوعرة، سواء في الأراضي الغبراء، أم في البحار الهائجة الخضراء، وقد جاء الاستعمال اللوني تأكيداً على هذا البعد الديني.

وإلى هذه الفكرة يتوجه ابن دراج القسطلي، حيث يقول:

حتى أعاد الدين أبيض مشرقاً بسيوفه والكفر أدهم أسوداً

(ابن دراج، 1961، ص: 453).

لقد استحضر الشاعر قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّقْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40]، والمقصود: حتى غدا الدين مرتفعاً سامياً، والكفر منكسراً ذليلاً. ومن المعاني الجميلة التي نراها في باب الجهاد أيضاً، الحديث عن التجارة حيث جعل الله تعالى الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: 10، 11]، وفي هذا المعنى يقول ابن دراج:

التوظيف الديني والأسطوري للون...

تِجَارَةٌ غَزَوِ نَقْدُهَا الْبَيْضُ وَالْقَنَا قِضَاءٌ حُقُوقٍ وَاقْتِضَاءٌ لِأَجَالٍ
فَلِلَّهِ كَمِ أَغْلِيَتْ مِنْ دَمِ مُسْلِمٍ وَأَرْخَصَتْ فِي أَعْدَائِهِ مِنْ دَمِ غَالٍ
وَأَسْلَمَتْ لِلْإِسْلَامِ فِيهَا بِضَاعَةٌ تَعُودُ بِأَضْعَافٍ وَتُوفَى بِأَمْثَالٍ

(ابن دراج، 1961، ص: 279).

فالسيف والقنا والأرواح هي ثمن العزة والنصر والتمكين، والذي كان أثره بادياً من خلال قوله (أغليت من دم مسلم)، ويؤكد على مفهوم التجارة الرباحة بقوله: (تعود بأضعافٍ وتوفي بأمثال). ويؤكد ابن زيدون على وجوب النصيحة بين المسلمين، وتقديمها للإمام الحاكم من باب أولى، وهو يستحضر هنا قول النبي - صلى الله عليه وسلم - "إنما الدين النصيحة" قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم". (أبو عوانة، 2014، 293/1، حديث رقم: 170). فيقول:

مَلِكٌ لَهُ مِنَّا النَّصِيحَةُ وَالْهَوَى وَمِنَهُ الْأَيَادِي الْبَيْضُ وَالنِّعْمُ الْخُضْرُ

(ابن زيدون: 1994، ص: 84).

وفي هذا السياق يتحدث عن مميزات هذا الأمير الذي يغدق بالعطايا والمكارم، ويده بيضاء من المعاصي والذنوب والشح والظلم وسفك الدماء. جاء هذا السياق التعبيري اللوني متماهياً مع مبدأ النصيحة لولي الأمر؛ ليؤكد على وجوبها، ويدعو إلى استحقاق الأمير لها. يستحضر ابن شهيد في أبياته الشعرية قوله تعالى: ﴿عَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16]. حين قال:

وَكَيْفَ اهْتَدَائِي فِي الْخُطُوبِ إِذَا دَجَّتْ وَقَدْ فَقَدْتُ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِي
مَضَى السَّلْفُ الْوَصَّاحُ إِلَّا بِقِيَّةٍ كَغُرَّةِ مُسَوِّدِ الْقَمِيصِ بِهِمِ

(ابن شهيد: 1900، ص: 147).

حيث الممدوحون الذين غربوا عن الحياة زادوا من ظلمتها، فهم النجوم التي تدل على الطريق، وتحفظ من التيه، وقد جاء التضاد اللوني في هذا السياق متناسقاً مع الآية القرآنية السابقة حيث طلوع النجوم فال خير ويسر، وغيابها شؤم وضياح.

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

ومن المعاني التي ركز عليها الشعراء، أنهم ردوا أسباب الهزيمة إلى البعد عن الله تعالى، وارتكاب المعاصي، هذه الأشياء هي التي تورث العمى سوداوية الرؤية، فتبليت الأمة حيرى، تلجأ إلى الأعداء، تظن عندهم المنجاة، وهم النيران التي تكوي جباه الأمة إنه عمى القلوب، يقول الشاعر:

لكن العمى أعمت بصائرهم فألبستكم ثيابا للبلبلى جددا
يا أمة هتكت مستور سوءتها ما كل من نل أعطى بالصغار يدا
(ابن عذاري: البيان المغرب، 3/ 110).

فالبصيرة هي العمياء التي غطي على نورها الساطع، بغشاوة سوداء لا مجال فيها للرؤية الصائبة الحقة وكأنه يستدعي قول الله تعالى: ﴿فَأَنبَأَهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

استدعى الشعراء معاني التهويل المقصود، لإخافة الأعداء، سائرين على الطريقة الربانية التي خوطب فيها الناس جميعاً، حيث حذر الله تعالى الناس من أهوال القيامة، دعاهم إلى الإنابة والخضوع، فيقول: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: 17]. فهذا إنذار لمن ألقى السمع أو كان له بصيرة يرى بها، ومن معاني التهويل باستخدام هذا الأسلوب قول الشاعر الأسيدي:

ألا فأذنوا منا قريبا بوقعة تشيب لها ولدائكم والمراضع
(ابن حيان، 1977، ص: 62).

وقد استعملت دلالة الشيب من ناحية أخرى على أفول العمر وانقضائه، ففيما أثر عن الحجاج الحجاج: "الشَّيْبُ نَذِيرُ الْأَخْرَةِ". (الشجري: الأمالي الخميسية، ج2، 341). يقول الشاعر:

قد كنت لا أدري لأية علة صار البياض لباس كل مصاب
حتى كساني الدهر سحق ملاءة بيبضاء من شيبى لفقد شبابي
(ابن دحية الكلبي، 1955، 1/ 80).

التوظيف الديني والأسطوري للون...

وقد كان الشيب إحدى علامات أرسلها الله لموت موسى- عليه السلام- كانت علامة الكبر التي قدمها زكريا لربه في الدعاء، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8].

حفرت قصة إبراهيم- عليه السلام- مع زوجه هاجر وابنه إسماعيل في ذاكرة الشعراء، استدعوا من خلالها رعاية الله وعنايته بالمسلمين، لكنهم في ذات المكان استذكروا الأهوال والفقير الذي عاشه الأندلسيون جراء تركهم لبلادهم ومدنهم المنكوبة، فأخذوا يصفون جفافها بالوادي الذي لا زرع فيه مستدعين قول إبراهيم- عليه السلام- داعياً ربه مناجياً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37].

اختلطت هذه المشاعر المحزنة بالأمل في العودة والرجوع إلى الديار، ليعود الوادي أخضر مثلما كان يعج بالحياة وبالحركة يقول الشاعر:

نور ونور فهذا بعد نُضْرته
ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد
ويا مؤمل واديهم لتسكنه
خَفَ القطين وجفَّ الزرع بالوادي
(ابن الصيرفي، 1985، ص: 28).

ذكر الشاعر هذه الأبيات مستحضراً مفارقةً تصويرية جميلة بين الماضي المبهج، والحاضر المقفر، وقد نجح في التعبير عن هذا بقوله (نُور ونُور) حيث كانت دلالة اللون تفيد الجمال والدعة والراحة، فلما قال: (جف الزرع) أفاد التحول والانقلاب إلى سواد النكبة.

كما أشار الشعراء ببعض العقائد النصرانية لعل منها عقيدة التثليث، فرأوا أن أصول الحرب بين العرب المسلمين، وبين النصارى هي عقديّة؛ لذا سموهم بها، وعرفوهم بالانتساب إليها يقول الشاعر:

هم بطانفة التثليث قد فتكوا
كمثل ما يفتك السرحان بالغنم
وإن يلثمهم يوم الوغى رهج
أنسوك ما ذكروه عن ذوي اللثم
تضيء آراؤهم في كل معضلة
إضاءة السرج في داج من الظلم
(المقري، 1997، 4/ 532).

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

يستخدم الشاعر الكثافة اللونية في توضيح الانتصار، من انقلاب حال النصارى أصحاب عقيدة التثليث إلى السواد والإلزام، وارتفاع شأن المسلمين بدينهم وإيمانهم؛ ليكونوا مشكاة نور وهداية في ربوع العالمين، وفي هذا النص التقاء وتضمنين لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73]، وفيه إشارة إلى بطلان دينهم وعقيدتهم.

المبحث الثاني - التوظيف الأسطوري:

بين الشعر والأسطورة تشابه كبير يعود إلى تشابه كبير في جوهرهما من حيث وظائف اللغة، واتساع الخيال، واعتمادهما على الغموض في لغة رمزية مشتركة" فلغة كل منهما هي اللغة المجنحة التي تومئ ولا توضح، وتوحي بالحقيقة ولا تقبض عليها قبض الرياضيات... هي لغة الوجدان الإنساني في إحساسه بالأشياء على نحو غامض مستشر" (داوود، د. ت، ص: 13).

أما عنصر الخيال فإن له الأثر البارز "في خلق هذه القوة الأسيرة بوصفه جوهر الأسطورة والشعر معاً، وأداة التشكيل فيهما" (النعيمي، 1995، ص: 13)، حيث يعتمدان على التلميح بدل التصريح ويشتركان في خاصية الإيجاء والترميز وتلوين المعاني بظلال من الخفاء والوضوح، والتناوب بين الكناية والإفصاح والدلالة والإشارة لذا يمكن وصف الشعر بـ "السليل المباشر للأسطورة وابنها الشرعي" (السواح، 1997، ص: 22).

هذا المبحث سيدرس البعد الأسطوري الذي أداه اللون في شعر الحروب والفتن الأندلسي، لا سيما أن الأسطورة قامت منذ القدم عند كل الشعوب، ومن الطبيعي جداً أن يرى المرء نفسه أمام حشد كبير من المؤثرات الأسطورية في هذا النوع من الأشعار، فقد ارتبطت الحروب بالكثير من الأساطير، حيث إله الحرب وإله السلام وإله الخصب والنماء في مختلف الحضارات الإنسانية.

صور المقاتلين والأبطال:

من أكثر التصاوير البارزة في الشعر، تلك التشبيهات الجميلة التي تضفي قداسة للممدوح، وتحيطه بهالة كبيرة من الإعجاب والعلو على كل من حوله.

لجأ الشعراء لتقديس المقاتلين والممدوحين فتارة يشبهونهم بالشمس بل يتفوقون عليها وأخرى بالغزال وثالثة بالقمر ورابعة بالنار والنجوم والكواكب الدوارة، ولا يخفى ما كان يحيط بهذه الموجودات من قداسة، إذ كانت من أبرز معبودات العرب قبل الإسلام.

التوظيف الديني والأسطوري للون...

يقول ابن شهيد مشبهاً ممدوحه بالنجم:
وَكَيْفَ اهْتَدَانِي فِي الْخُطُوبِ إِذَا دَجَّتْ
مَضَى السَّلْفُ الْوَضَّاحُ إِلَّا بَقِيَّةُ
وقد فَقَدْتُ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِي
كَغُرَّةِ مُسَوِّدِ الْقَمِيصِ بِهِمِ
(ابن شهيد، 1900، ص: 147).

فقد شبه الممدوح بالنجم، والذي يمثل الإنارة المطلقة في وجه المدلهات والصعوبات، وهو من معبودات العرب القدماء ويتبعه الضوء والمصباح والنور والإشراق، وقد رمز في غيابه إلى الظلمة والسواد الذي يحيط للإنسان.

إن هذا الدال اللوني الذي يثيره النجم، أورث في العربي حباً له فهو الذي اعتاد أن يلجأ إليه في حله وترحاله، إذ يعد رفيق السفر، ودليل الطريق، وصاحب المناجاة، حتى صار معشوقاً للعربي بل معبوداً له ولا يخفى ما ذكره الله تعالى على لسان الهدد حينما استنكر ما يفعله قوم سبأ من عبادة الشمس والنجوم من دون الله تعالى حيث يقول: ﴿جَدُّنَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24] ، وما ورد على لسان إبراهيم- عليه السلام- وهو مار في الجزيرة العربية إذ وجدهم يعبدون الشمس والنجوم والكواكب والقمر قال تعالى في محاوراة إبراهيم لهم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 76-78].

ومن هنا استخدم ابن شهيد هذا التشبيه ليدلل على قداسة ممدوحه فبغيابه ترك حائراً تائهاً، لا يقوى على فعل شيء، وهذا تأثر بالمعبودات القديمة التي عبدها العرب من دون الله- سبحانه وتعالى-

ومن الصور الجميلة التي تضيء على الممدوح أيضاً رد النماء والخصب إليه فبوجوده في البلاد يحل الخير، ويفقدانه يحل الجذب والفقير، يقول ابن الأبار:

وَلَدَيْهِ إِذَا اغْبَرَّتْ سَنَةٌ
مُخْضَرٌّ الْعَيْشِ وَأَرْعَدُهُ

(ابن الأبار، 1999، ص: 156).

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

حيث أطلق على رعادة العيش لفضة اللون الأخضر، فالممدوح ممتك لأسباب الحياة؛ فهو ربيعها الضاحك المبتسم، الذي يهب الناس الحياة والخصب، وصفة الربيع تعيد الذاكرة إلى إلهين هما (بعل) و(تموز) (ينظر: السواح، 1988، ص: 255-256).

فبعل هو إله الأمطار التي بنزولها تعود الحياة إلى الأرض وتتعم حياة البشر، أما الربيع فيتمثل في (تموز) الذي باختفائه يعم الجفاف ويهلك الناس، حتى يعودون للحياة من جديد بعودة (تموز) إله الخضرة الذي يظهر في الربيع، ومن هنا كان حضور الممدوح يعني حياة الناس وخلصهم من الشرور، وغروبه يعني هلاك الناس وخراب الأرض.

وكان اخضرار الربيع يدل على السعادة والهناء، ففي مصر الفرعونية رُمز إلى (عشتار) برمزية معاني الخير والعطاء والنماء (ينظر: السواح، 1996، ص: 105-115).

كما ألبس الشعراء ممدوحهم لباس أهل الجنة من الخز والياقوت والذهب والحريير المديج وغيره، يقول الشاعر:

وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ مِنْ كُسَاهُ فِي حُمْرِ إِسْتَبْرَقٍ وَخُضْرِ
وَأَشْرَقَ الْمَسْكُ وَالغَوَالِي فِي أَوْجِهِ مِنْ نَدَاهِ عُرِّ

(ابن دراج، 1961، ص 32-33).

فالممدوح يتوشى بلباس الحريير المديج الملون والمقصود هنا قول الشاعر (استبرق)، فهو ملك متوج بلباس عظيم جميل مزركش، وهذا يذكر بلباس الآلهة في الأساطير اليونانية والأساطير المصرية وفي بلاد الرافدين، فقد كان ملوك اليونان يرتدون عباءات ملونة بالأبيض والأحمر للدلالة على القداسة والشرف (جودي، 1961، ص: 31).

وفي مجال إظهار القوة والمنعة يلجأ الشعراء لإلباس القادة والمقاتلين الذهب بعد انتهاء المعارك، يقول الشاعر:

وَسَرَبَلْتِكَ ثَنَاءً جَلَّ مَوْفَعُهُ عَمَّا كَسْتِكَ ثِيَاباً عَمَّهَا الذَّهَبُ
(ابن حيوس، 1984، ص: 68).

وهذا يدل على كم الهيبة والعزة الذي تحقق للجنود المقاتلين.

التوظيف الديني والأسطوري للون...

يقول عبد القادر الرباعي بأن العرب قد ضربت المثل بالقبة الحمراء كدليل على تقديم القرابين لسيد القبيلة، ومع مرور الزمن أصبح اللون الأحمر في القباب دليلاً على المكانة العالية دون أن تقدم الأضاحي لهذا الشخص على وجه الحقيقة (ينظر: عبد القادر الرباعي، 1984، ص: 134).

ومنه قول أبي زكريا بن هذيل:

بحيث القباب الحمر والأسد الورد كتائب سكان السماء لها جند

(لسان الدين بن الخطيب، 1989، 1/125).

ومن الأساطير التي تجلت فيها صورة المحارب أيضاً مشاهد شربه من دماء الأعداء، والتي عبر عنها الشعراء بنسبة الشرب أيضاً إلى آلة القتال، فآلة القتال عطشى لدماء الأعداء تنتظر السقيا منها ويتحقق لها ذلك فينتشي المقاتل بهذا المشهد، ويفرح جذلاً بهذه الصورة يقول ابن خفاجة:

إِذَا السَّيْفُ لَمْ يَشْرَبْ بِهِ الدَّمِ قَانِئاً عَبِيطاً أَبِي أَنْ يَشْرَبَ المَاءَ صَادِياً

(ابن خفاجة، 1994، ص: 238).

يستخدم الشاعر أسلوب الشرط ليركز على صورة السيف الذي لا يشرب من الدماء إلا أشدها قتامة في إشارة إلى كثرة من يذبحون على حد صفيحته.

يربط ابن الأبار الاحتفال بالنصر من خلال وضع المسك الأسود إلا إن كان دم الأعداء شراباً

لهم فيقول:

لا طيب حين يُعبي عسكرياً لُوغَى ما لم يكن من دم الكفار يعبؤهُ

(ابن الأبار، 1999، ص: 42).

وفي مشهد آخر من مشاهد الفرح والإكثار من شرب الدماء يعير الشاعر بصيغة المبالغة عن

شرب ممدوحه لدماء الأعداء، فيقول:

شراب أكواس المدام وتارة شراب أكواس الدم الموارد

جرار أذيال القنا ظنوا به قد زاركم في الجحفل الجرار

(أحمد بن عبد السلام، 1991، 1/772).

فلون الدم الأحمر الذي أشار إلى معارك الممدوح مع الأعداء، ازداد أثره إثر قوله: (شراب)، ومنه

قول ابن عبد ربه الأندلسي في وصف وقع المعركة:

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

ومعترك ضنك تعاطت كماته
وتسمعهم أم المنية وسطها
فرنج إذا ما اعتن للعين راكد
كؤوس دماء من كلى ومفاصل
غناء صليل البيض تحت المفاصل
ويرق إذا ما اهتز بالكف لامع.
(ابن عبد ربه، 1979، ص: 105).

من خلال الأبيات السابقة تبرز لنا ملحمة (عناة) التي ظهرت في نصوص (أوغاريت)، والتي تمثل صورة الرعب حيث تقوم (عناة) بسفك الدماء، لتلطخ بها كل شيء حتى أصابعها وجسدها، وتكون (عناة) منتشية بهذه الدماء، حيث فرحت عند رؤيتها وامتلاً قلبها بالسرور (ينظر: فريحة 1980، ص: 191-192).

ومن هنا نلاحظ ولع الآلهة بشرب الدماء ففي أحد نصوص (أوغاريت):

وبينما تشرب الآلهة خمراً بالكبير

ودم الدالية بكأس ذهبية، بكأس فضية

(ينظر: فريحة، 1980، ص: 133-135).

فهنا كان حب الآلهة للخمر لا على أساس نوعها بل اعتبرت الآلهة دم لدالية العنب، وفي نصوص أخرى من هذه الملاحم تقوم (فوغة) بإسقاء قائل أخيها الخمر على شكل الدم حتى سكر واعترف بفعلته، ومن ثم قتلته (ينظر: فريحة، 1980، ص: 336).

ومن الإشارات الأسطورية التي أحيط بها المقاتل أيضاً، صورة الموت الذي يكون أينما حل البطل، فالموت ملازم لسيفه، ولرمحه، ولحرته، ولجيشه العرمم، كأن المقاتل أحد آلهة الموت والدمار، يرعب الناس وينفرون منه، لأنه محارب لا يكف عن الموت وشرب الدماء، وهو يخطف الأنفس دون أن يمهل أصحابها.

صور وسائل القتال وأساليبها:

كما أطلق الشعراء على المقاتلين أوصاف أسطورية كما سبق، فقد لجأوا إلى أدوات القتال ليصبغوها بقالب القداسة والخرافية، فمن هذه المظاهر التي تناولت أدوات المحارب تركيزهم على وصف الخيول الدهماء، وأنهم يتقنون القتال على ظهر الحصان الأسود، فقد ارتبط هذا المفهوم

التوظيف الديني والأسطوري للون...

بالعديد من الأساطير فعلامة قوة المقاتل بلون ركوبته السوداء، والتي تعد من متعلقات المقاتل يقول ابن حمديس في وصف حصان أحد المقاتلين الأسود:

أَوْ أَدَهْمِ دَاجِي الإِهَابِ كَأَنَّمَا صَبَغَ الغَرَابَ بِلَوْنِهِ الغَرِيبِ
أرْسَاعُهُ دُرَّرَ عَلَى فيروزِ لَان الصفا من وقعِهِ لصليبِ
يعدو ولا ظلُّ له فَكأَنَّهُ بَرَقَ فَيَا لِلبرقِ مِنْ مَركوبِ
(ابن حمديس، 1998، ص: 52).

حيث أظهر صفات الخلود والقداسة عبر الكثير من التشبيهات المجازية فعده كالبرق، ولونه كالغراب الفاحم، وأرْسَاعُه درر، وتبعه الكثير من الشعراء الذين جعلوا الخيول السود مراكب لهم خلال القتال منهم ابن خفاجة، حيث يقول:

سَأرْكَبُ مِنْهُ ظَهَرَ أَدَهْمَ رِيضِ مَرُوعٍ بِسَوَاطِرِ الرِّيحِ يَرْتَدُّ يُرِيدُ
(ابن خفاجة، 1994، ص: 87).

وابن زمرك:

أَوْ أَدَهْمِ كَاللَّيْلِ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَرْضَ بِالجِوْزَاءِ حَلِي عِذَارِ
(المقري، 1997، 176/5).

وكلهم أراد مقصداً واحداً يتلخص ببيان عظيم قوة وقدرة هذا الحصان، مما يعطي ثقة للمحاربين، ويجعلهم أكثر قرباً من كسر شوكة الأعداء.

هذه الملازمة المستمرة بين المقاتل وبين فرسه الأسود يستدعي استحضار الإله (شو بن رع) في مصر الذي يصور على "هيئة محارب شاب يقتل وهو في مركبة الأسود" (ارمان، 1995، ص: 414).

وبهذا يصبح المركب الأسود من متعلقات الإله المقاتل، في دلالة على سوداوية أيام وليالي المعادين، حيث الإله المبتهج برؤية الفرسان صرعى.

ومن الصور المكررة في أحاديث الشعراء وصف بريق السيوف والحرب ولمعانها كأدوات قتالية، وقد رمزوا لها تارة بالبرق وأخرى بالنور، وثالثة بالشمس، وكل ذلك لتأكيد فكرة قوتها وصلابتها وقدرتها الخارقة على البتر، فإضافة إلى المضاء يستخدم النور البارق في القتل إذ تعمى عيون

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

الأعداء ما ناحية، وتكشف رقابهم في ظلمة غبار النقع تارة أخرى ومن هذه المشاهد قول ابن الأبار الذي نعت السيوف بالبرق المضيء اللامع، فقال:

لِمَنْ وَقَعَهُ بِالْغَرْبِ ضَعُضَتْ الشَّرْقَا أَرَأَيْتَ نَجِيعَ الْمَارِقِينَ فَمَا يَرِقًا
وَأَزَجَّتْ مِنَ النَّقْعِ الْمُثَارِ سَحَابِيَا تَأَلَّقَ مَصْقُولُ الْحَدِيدِ بِهَا بَرِّقًا

(ابن الأبار، 1999، ص: 392).

فقد جعل سيف البارق أحد أسباب النصر المحقق، حيث كان هذا اللعان سبباً في الكشف المباشر عن الأعداء، وأسهم في إبادتهم.

ويقول ابن دراج ناصحاً بأن الحل في التعامل مع الفتنة التي برزت في البلاد يكون بالحرب وأدواتها، والتي من أشهرها تلك السيوف اللامعة البراقة، حيث يقول:

وَأَنَا الزَّعِيمُ بَأَنَّ عَاجِلَ بُرِّيهِ فِي قَرْعِ طَبِلٍ أَوْ صَلِيلِ لِحَامِ
أَوْ لُبْسِ دِرْعٍ أَوْ تَهَادِي سَابِحٍ أَوْ مَدِّ رُمْحٍ أَوْ بَرِيقِ حُسَامِ

(ابن دراج، 1961، ص: 424).

بريق السيوف اللامعة يذكر بقصة (زيوس) الأولمبي الذي كان إذا غضب من شخص أو رغب في قتله أرسل عليه صاعقة من بريق أشرطة القصدير التي يحملها نسر الذهبية. (ينظر: أبو عون، أمل، اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي- شعراء المعلقات نموذجاً، ص: 156، فكأن البرق الصادر عن تلك السيوف هو بريق أشرطة قصدير (زيوس) الأسطوري.

وقد وصفت الرماح باللون الأزرق وكأنها ذات عيون زرقاء تحرس الناس، ووسمت بهذا الوصف كناية عن مضائها وقوتها ولمعانها، يقول ابن الأبار:

تَظَلَّلَهَا خَضِرُ الْقَنَابِلِ وَالْقَنَا وَتَكَلَّوْهَا زَرْقُ الْأَسْنَةِ وَالظَّبْيِ

(ابن الأبار، 1999، ص: 101).

والأبيات التي تحمل هذا المعنى كثيرة، لعل مفهوم الحراسة هذا يتعلق بالإلهة (أرتيميس)، والتي تمثل إله الصيد عند اليونان، فقد كان من مهامها رعاية الأطفال حديثي الولادة، والنساء المنجبات، وحمايتهم من المرض والخطر، والحسد، وهذا أصل وضع العين الزرقاء في البيوت ومختلف الأمور للوقاية من الحسد.

التوظيف الديني والأسطوري للون...

ومنه قول الشاعر في وصف مصيدة:

قد صاد ظبا وكان الليث من طرده.

فرب ذي قنص زرق حباله

(ابن دراج، 1961، ص: 540).

والى هذا المعنى يشير الشاعر، بقوله:

إليها عيون الزرق من كل لهزم

يغير على زرق المياه وقد رنت

(ابن اللبانة، 2008، ص: 134).

فالزرق من النسريات الحائمة التي تبحث عن صيد في النهر، وترغب في الاستيلاء عليه، وفي تعالق آخر مع قصص الرحلات الأسطورية المصرية نجد المياه الزرقاء الصافية، حيث إنه وصفت رحلة ثعبان ف "كان لونه فضياً عليه نقوش ذهبية وزرقاء، وكانت الجزيرة محاطة بالمحيط الأزرق" (كريم، 1975، ص: 36) وهو دليل على النقاء والطهارة.

صور الحرب وأوصافها الخاصة:

ذكر الشعراء الحرب وألبسوها العديد من الأوصاف، وأكثر التشبيهات التي تعلق بالحرب أنها شبهت بالأنثى فهي الحرب العوان، والملقحة، والمنتجة؛ كما شبهت بالنار المستعرة، وشبهت بالثعابين والأفاعي المنسلخة من جلدها وغير ذلك.

وقد تعالقت هذه التشبيهات مع الكثير من الأساطير العالمية القديمة، فقد وجدت المرأة المحاربة في الأساطير القديمة لعل النص التالي يوضح إحدى هذه الصور:

"إنانا، يا صاحبة السيادة الأبية

الخبيرة، في إطلاق الحروب

أنت التي تكتسحين الأرض، وتحتلين البلاد

بسهامك البعيدة المدى

هناك، وفوق المرتفعات، تزارين كأصهب المفترس

وتضربين الشعوب

وكأسد هائل، وبفمك المزيد

تبيدين الخصوم والمتمردين" (الشواف، 1999، ص: 245).

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

فارتباط الحرب بالأنثى، وارتباط الأنثى بالحيوان المقترس يعود في جذوره إلى عشتار، وإنانا، وسخمت، وتواصل ذلك إلى أن وصل إلى الشاعر الأندلسي الذي عبر عنه في شعره، ولعل اتصال الحرب بالنار ذات اللهب الأحمر الحارق، حيث تستعر هو أهم مظهر من مظاهر تصويرها في هذا النوع من الشعر، وهو المعني بدراستنا لعلاقته بالبعد اللوني، يقول ابن دراج:

وسُمِرَ لِذَانِ كَالكَوَاكِبِ سَقَّتْهَا
لِيَوْمٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ بَادٍ كَوَاكِبُهُ
صَلِيَتْ وَنَارُ الْحَرْبِ يَذُكُو سَعِيرُهَا
وَحَضَّتْ وَمَوْجُ الْمَوْتِ تَطْفُو عَوَارِبُهُ
وَلَا مِثْلَ يَوْمٍ نَحْوِ لَوْنَةِ سِرْتِهِ
وَقَدْ قَنَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ عِيَاهِبُهُ

(ابن دراج، 1961، ص: 23).

يكرر الكاتب فكرة المركب الأسود، ثم يبدأ بتشبيه الحرب بالنار المستعرة التي تبدأ بلهب صغير ثم تقور فتأتي على كل شيء أمامها.

فالصورة التي أوردتها تدور حول (الحرب) وربطها بالنار، حيث إن النار تقني الحطب والحرب تقني الناس.

ويختلج هذا النص مع نظرة بعض الديانات إلى النار المقدسة فالمجوس قدموا لها القرابين، وتعاملوا معها كإله، وترى الزرادشتية "أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة وقدسوا النار خصوصاً، واتخذوها رمزاً إلى جانب الشمس "لقوة الإله"، وحافظوا على شعلة النار مشتعلة في هياكلهم بالمعنى الرمزي والمعنوي، وجعلوها تتأجج في صدورهم إلى جانب تأججها في المعابد، يقدمون لها وقوداً من خشب الصندل، وأخشاب عطرية أخرى، فتعيق الهياكل بروح قدسية فيها النشوة والطهر والخلود" (أبو سويلم، 1991، ص: 115).

وقد روت صورة النار في صراع إنان مع كور، حيث تقول مستخدمة النار في الحرب:

سأرميه بالحربة الطويلة
وسأوجه ضده كل أسلحتي

وبالغابات المحيطة به سأضرم النار (الماجدي، 1998، ص: 242).

ومن الإشارات الأسطورية المتصلة بالحرب تشبيهها بالثعابين، وتصوير الجيش المقاتل الذي ينتمي إليه الشاعر بالشموس كما سبق ذكره، حيث كان معروفاً عن معظم الأساطير الفرعونية

التوظيف الديني والأسطوري للون...

واليونانية والسومرية والبابلية إجرائها الحروب الكبيرة بين الحيات والشمس وكانت الغلبة دائماً للشمس، تسلت هذه الأساطير إلى عقول الشعراء الأندلسيين، قال ابن هاني الأندلسي:

ولو حاربتك الشمس دون لقاءهم
لأعجلها جند من الله هازم
سبقت المنايا واقعاً بنفوسهم
كما وقعت قبل الخوافي القوادم
تقود الكماة المعلمين إلى الوعى
لهم فوق أصوات الحديد همام
عدوا في الدروع السابغات كأنما
تدير عيوناً فوقهن الأرقام
فليس لهم إلا الدماء مشارب
وليس لهم إلا النفوس مطاعم

(ابن هاني، 1980، ص: 339).

فالنص السابق مليء بالأفكار الأسطورية المتعلقة بصورة الحرب، فالمقاتل يشرب من دم الأعداء، ويسير الموت حيث يسير، ويظالنا بأسطورة الشمس والثعبان، فالجيش يعلو على الشمس كناية عن قدرته العجيبة في تحقيق الظفر والنصر على الأعداء، وفي ذات الوقت يستعير صورة من صور المراقبة القتالية التي تتميز بها الأفعى، وهنا يمزج بين أسلوبين قتاليين رد أحدهما للشمس والآخر للأفاعى.

وفي تصوير آخر اجتمعاً فيه، يقول حازم القرطاجني:

عليهم نسيج السابغات كأنما
جلود على الحيات قد كُشِطت كسطا
إذا لمع للشمس لاحت عليهم
رأيت صلاباً ألبست خللاً رُقطا

(القرطاجني، 1989، ص: 71).

فهناك تلازم كبير بين بزوغ الشمس وظهور الثعابين، فحينما تبرز شمس الربيع، وتنتشر دفئها في الأرض، تترك الثعابين حجورها وتنسلخ من جلودها وتتطلق في حياتها، وعندما تغادر الشمس في فصل الشتاء تخفي الثعابين متخذة من باطن الأرض ملجأ لها وملاداً، "ونكاد لا نعثر على إله شمسي أو سماوي لم يدخل في صراع مع أفعى الأم الكبرى، ولعل هذا الصراع يعكس صداماً موعلاً في القدم تم عند مشارف التاريخ المكتوب" (السواح، 1996، ص: 143).

إن وضوح صدى هذه المعادة الكبيرة بين الشمس والثعبان تجلى في أساطير الشعوب المختلفة، إذ يمكن أن تعود إلى البابليين والفراعنة واليونانيين والإغريق والهنود والفارسيين.

أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018

تقول الأسطورة الفرعونية: "أن أيبب الإله كان يمثل بحية ملتوية في كل طية من جسمها مدية ماضية، تكمن للشمس بعد المغيب فلا يزال إله الشمس (رع) في حرب معها ومع شياطينها السوداء والحمراء إلى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود الشروق" (الشوك، 1998، ص: 177).

تصور الأسطورة الإغريقية انتصار الإله أبولون البيتياني على أكثر الثعابين ضراوة وهو الثعبان بيثون ذو الفك المسماري الذي يبتلع الشمس في الغرب ويلقي بها في الشرق (شعبو، 2006، ص: 272).

وتقول الأسطورة البابلية أن الإله مردوخ (إله الشمس) قتل الأم تعامة في صورة تتين رهيب (السواح، 1997، ص: 80)، ويعد الثعبان في تلك الأساطير رمزاً للعالم السفلي؛ عالم الظلمات، ويرتبط كل صراع معه بالشمس، فظهورها يعني التغلب عليه، وكسوفها يعني الانهزام أمامه.

وقد حولت القصص الأسطورية حيوات المهزومين إلى صباح أسود، ففي نظرة تحولية انقلب ليل الأعداء إلى أشهب من الحرائق التي دبت فيها، وتحول النهار إلى أسود من هول المصيبة، يقول ابن الأبار:

فَرَاخَ عَلَيْهِمْ أَذْهَمَ اللَّيْلُ أَشْهَبًا وَأَضْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَشْهَبُ الصَّبْحِ أَذْهَمًا
(ابن دراج، 1961، ص: 124).

نظرت بعض الأساطير القديمة إلى نهار المهزوم نظرة سوداوية، ففي أسطورة يونانية تبين الصراع بين كبير الآلهة زيوس والبطل بروميثيوس، "حيث كان العذاب ينزل على البطل في الصباح الباكر، أما الليل فكان فترة هدوء وسكينة له، فعند الصباح فإن نسرًا هائلاً يطير إلى الصخرة كل يوم مصفحاً بجناحيه العظيمين فيحط على بروميثيوس ويمزق بمخالبه الحادة صدره، ويميل إلى كبده وينهشه، فتسيل الدماء جداول تضرج الصخرة، وتجف عند أسفلها نجيعاً قاتم اللون، وتنتن تحت أشعة الشمس فتملأ الفضاء برائحة عفنة لا تطاق، ويحط النسر كل صباح ليكرر فعلته الدامية، ثم تتدمل الجراح أثناء الليل وتتمو داخل بروميثيوس كبد جديدة لتغدو طعاماً جديداً للنسر في النهار" (حاتم، د. ت، ص: 164).

وهكذا كان الصباح صباح ألم وعذاب وشؤم على البطل. ومن هنا يمكن القول: إن هذا الصباح هو الذي كانت تمثله إلهة الحروب والدم والدمار بوجهها الأسود.

الخاتمة:

لوحظ من خلال ما سبق من شواهد وأمثلة أن اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس تعلق كثيراً بالمعاني الدينية والأسطورية، وتجلت هذه المعاني بكثرة توافقها مع القرآن الكريم، حتى غدا القرآن الكريم مصدراً مهماً من مصادرهم التي اعتمدوا عليها في أشعارهم. وقد توافقت استخدام الشعراء لدلالات الألوان الأساسية ومعانيها، بالدلالات القرآنية لهذه المعاني، وظهرت تقنيات التناص اللوني مع القرآن الكريم والحديث الشريف، حيث ارتبطت بشكل كبير بسياق تعبيرى مشبع بالألوان المؤكدة لفكرة الدينية التي يدعو إليها الشاعر. تناول المبحث الثاني التوظيف الأسطوري للون المستخدم في شعر الحروب والفتن الأندلسي، ظهرت معرفة الشاعر الأندلسي بالأساطير المختلفة مما يعكس ثقافته العالية، وقد تبين ذلك من خلال الكم الهائل من الإشارات الأسطورية المحتشدة في أشعاره. كما وظف الشاعر الأندلسي الأسطورة مستخدماً الدلالات اللونية المختلفة كالأبيض والأسود والأزرق والأخضر، وقد تنوع هذا التوظيف بين الألوان المباشرة وغير المباشرة من خلال بعض الأشياء وخصائصها اللونية كالشمس والقمر والذهب والدم... وغيرها. وبهذا تعكس التعلقات الفكرية الأسطورية بالشعر الأندلسي ثراء الشعر الأندلسي وتنوعه الفني والثقافي.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأبار، 1999م: الديوان، قراءة وتعليق: عبد السلام هراس، د. ط، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب.
2. ابن الحداد، 1990م: الديوان، ط1، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، بيروت.
3. ابن الرزاق، الديوان، 1964م، تحقيق: عفيفة ديراني. أطروحة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأمريكية، بيروت.
4. ابن الصيرفي، 1985م: المختار من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: عبد الرزاق حسن، ط1، دار البشير، عمان.
5. ابن اللبانة، 2008م: الديوان، جمع وتحقيق: محمد السعيد، ط2، دار الرياء للنشر والتوزيع. عمان.

- أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018
6. ابن حيان القرطبي، 1977م: المقتبس، تحقيق. محمود مكي، د. ط، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
7. ابن حيبوس، 1984م: الديوان، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت.
8. ابن خفاجة، 1994م: الديوان، تحقيق وشرح: عمر الطباع، ط1، دار القيم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
9. ابن دحية الكلبي، 1955م: المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، وأحمد بدوي، راجعه: طه حسين، دار العلم للجميع، بيروت.
10. ابن دراج، 1961م: الديوان، حققه وعلق عليه: محمود مكي، ط1، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق.
11. ابن زيدون، 1994م: الديوان، شرح: يوسف فرحات، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت.
12. ابن شهيد، 1900م: الديوان، حققه: يعقوب مكي، راجعه: محمود مكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
13. ابن عبد ربه، 1979م، الديوان، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط1، مؤسسة الرسالة، دمشق.
14. ابن هانئ، 1980م: الديوان، ط1، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان.
15. أبو سويلم، أنور، 1991م: مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي، دار عمار، عمان.
16. أبو عوانة، 2014م: المسند الصحيح المخرج على صحيح مسلم تحقيق: عباس بن صافان، ط1، منشورات الجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية.
17. أبو عون، أمل، 2003م: اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي - شعراء المعلقات نموذجاً، رسالة ماجستير، إشراف: د. إحسان الديك، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين.
18. أحمد بن عبد السلام، 1991م: الحماسة المغربية، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت.
19. ارمان، أدولف 1995م: ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أنور شكري، د. ط، مكتبة مدبولي، القاهرة.

التوظيف الديني والأسطوري للون...

20. الأصبهاني، عماد الدين، خريدة العصر - قسم شعراء الأندلس. تحقيق: أدريتش آذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي. ط1. وزارة الإعلام. العراق. د. ت.
21. جودي، محمد حسين، 1997م: تاريخ الأزياء القيم، ط1، دار صفاء للطباعة، عمان.
22. حاتم، عماد، د ت: أساطير اليونان، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا.
23. داوود، أنس، د ت: الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ط1، مكتبة عين شمس، القاهرة.
24. الرباعي، عبد القادر، 1984م: الصورة الفنية في النقد الشعري، ط11، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض.
25. الرصافي البننسي، 1989م: الديوان، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت.
26. الزمخشري، الكشاف، 1996م: ط3، دار الكتاب العربي، بيروت.
27. السواح، فراح، 1997م: الأسطورة والمعنى - دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية، ط1، دار علاء الدين، دمشق.
28. السواح، فراس، 1988م: مغامرة العقل الأولى، د. ط، دار علاء الدين، دمشق...
29. السواح، فراس، 1996م: لغز عشتار - الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ط6، دار علاء الدين، دمشق.
30. الشجري، 2001م: ترتيب الأمالي الخميسية، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت .
31. شعبو، أحمد، 2006م: في نقد الفكر الأسطوري والرمزي - أساطير وفكر وفلوكلور في الفكر الإنساني، ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان.
32. الشواف، 1999م، ديوان الأساطير، قدم له: أدونيس، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان.
33. الشوك، علي، 1998م: جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، ط2، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.
34. فريحة، أنيس، 1980: أوغاريت ملاحم وأسابير في رأس شمرا، ط2، دار النهار، بيروت.
35. القرطاجني، حازم، 1989م: الديوان، تحقيق: عثمان الكعاك، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت.

- أ. د نبيل أبو علي، أ. يحيى غبن، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول، يناير 2018
36. كريم، سيد، 1975م: الرحلات الفرعونية في الأدب المصري القديم، مجلة الهلال، ع7، ص: 36.
37. لسان الدين بن الخطيب. الديوان. تحقيق: محمد مفتاح. ط1. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء. 1989م.
38. لسان الدين بن الخطيب، 2003م: الإحاطة في أخبار غرناطة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
39. الماجدي، خزعل، 1998م: متون سومر، الكتاب الأول، التاريخ، الإثنولوجيا، اللاهوت، الطقوس، ط1، الأهلية.
40. المقري، 1997م: نفع الطيب، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار صادر، بيروت.
41. النعيمي، أحمد إسماعيل، 1995م: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ط1، سينا للنشر. مصر.